شارلس لام يروى عن شاكسبير (١)

قصة الشـــتاء

للأستاذ دريني خشبة

أحب ليونتس ملك صقلية زوجه الحسناء الفاضلة هرميون حباً يقرب من العبادة

وكان صديقه بوليكسينز ملك بوهيميا أحب الناس إليه بعد هرميون ، لأنه رفيق الصبا وخدن الشباب وزميل المدرسة ... فلما فصلت الأيام بينهما لارتقائهما أريكة الملك ، ظلا يسقيان فروض الصداقة ، ويرعيان عهود المودة ، ويتبادلان الهدايا والتذكارات واللهى

ثم دعا ليونتس صديقه لزيارته ، وألح فى دعوته ، فأقبل بوليكسينز ليحل ضيفاً على البلاط الصقلي ، ولقيه الملك لقاء الشوق المستهام ، وقدمه إلى زوجه هرميون أعز صديق بل أعز شقيق

وأخذا يتنادران فى النهار و يسمران فى الليل ، ويقص أحدهما على الآخر ذكرياته ، ويستعيدان مُلَح الطفولة ورقائقها ، ويستعرضان صور الشباب الوارف الفينان ، وهرميون أثناء ذلك تصغى إليهما وتقبل على حديثهما وتسرّ به ، وكان زوجها يوصيها خيراً بضيفه فكانت تحتفى به ، وتبتكر الأساليب لإدخال السرور على نفسه

واستأذن ملك بوهيميا صديقه فى الأوبة ، فأبى ملك صقلية إلا أن يتلبث ... فألح ملك بوهيميا وأبى إلا أن يعود ... وهنا سأل ليونتس زوجه هرميون أن تطلب إلى بوليكسينز أن يبقى ... فلما فعلت لبّى ملك بوهيميا ، ونزل عند رجائها ، وأجل سفره إلى موعد آخر

وا أسفاه ! !

لقد نفثت ثمابين الغيرة سمومها فى قلب الملك ، واحتلكت الحياة فى عينيه ، ولم يفتأ يسائل نفسه لِمَ قَبِل ملك بوهيميا رجاء هرميون بمجرد أن كلمته ، مع أنه لم يقبل رجاءه هو ؟ !

« إن فى الأمر شيئاً ، وإن وراء الأكمة ما وراءها .. هذا لا ريب فيه ! لقد زاد عطف هرميون على هذا الضيف الثقيل ، حتى شككت فى أن يكون العطف حباً ... وهذه النظرات التى كانا يتخالسانها فى حضرتى ... وهذه الضحكات الفضية التى كانت هرميون تسقسق بها فى هواء المكان الذى كان يجمعنا وبوليكسينز ... ! »

وعلى هذا النحو راح الملك يجتر شكوكه ويوسع آفاقها ويلقى فى نارها وقود الظن حتى أنضجت فؤاده ، وحتى غدا بسببها وحشاً مغيظاً محنقاً ، ينظر إلى هرميون الجميلة الفتان الحصان الطهور ، نظرته إلى المرأة الفاسقة الماجنة الهلوك وينظر إلى صديقه العف الحبيب ، كما ينظر إلى عدوه الفاجر اللدود

وأرسل الملك إلى أحد رجالات بلاطه — السيد كاميللو — فبث إليه خبيثة صدره ، وأمره أن يدس السم لملك بوهيميا فى طعامه

وشاءت العناية ألا يمتثل كاميللو أمر مولاه ، وشاءت كذلك أن يلقى كاميللو بالسر كله إلى ملك بوهيميا ، وأن يحذره مغبة البقاء فى ضيافة ليونتس ؛ فيدبران الأمر معاً ، ويفران فى جنح الظلام إلى بوهيميا

ويثور ثائر الملك لهذا الفرار ، ويكبر فى روعه فيكون برهاناً جديداً لما دار فى خلده من شكوك وريب ، فيذهب من فوره إلى مخدع الملكة ، حيث جلست تصغى إلى قصة ظريفة يلقيها عليها ابنها مارميللوس ... الطفل اليافع الجميل ...

وكان الملك مقطب الجبين عابس الوجه ، يضطرب فى قلبه بركان من الغضب ، وتتدفق فى أعصابه سيول من الحُمم ، فتقدم كالوحش المجروح فانتزع مارميللوس ، وأسلمه لمن يعنى به ... ثم أمر فسيقت الملكة إلى غيابة السجن

(١) خدم شارلس لام وأخته ماري لامب أدب شاكسبير بتلخيصه نثراً ليسهل تناوله على القراء . ونحسب أن قراء العربية أولى بذلك من الانجليز وها نحن أولاء نضع بين أيديهم (قصة الشتاء) نموذجا لما فعل شارلس ، وهى من أمتع درامات شاكسبير التى يمزج فيها الخيال بالواقع ، والأسطورة بالحقيقة

وأرسل الملك سيدين من رجاله — كليومين وديون — إلى دلفوس ليستوحيا له كهنة أبوللو فى أمر زوجته ، وفى حقيقة ما اتهمها به ... هل صحيح أنها خانته مع صديقه ، أم هى براء من هذه الجريمة الشنعاء ؟

* * *

فى تلك اللجة من الدموع ، وفى هذا الليل الزاخر من الأحزان ، وضعت هرميون فى سجنها السحيق أنثى ... كانت سلوى باكية لأمها المشجونة ؟

وهكذا ضم السجن ضحيةً أخرى ... مولودة شقية لا ذنب لها ولا جريرة ولا إثم ... أرسلتها المقادير إلى هذه الدنيا المعوجة القاسية لتكون حياتها مأساة !

وكان للملكة صديقة من نساء سادة البلاط تحبها وتخلص لها الود ، تدعى ليدى پولينا ، زوجة أنتيجونوس الصقلى

فلما علمت بما أجاء الملكة فى سجنها من المخاض ، وما تلا المخاض من وضع ، ترقرقت دموع الألم فى أغوار قلبها من أجل مولاتها ، وانطلقت إلى السجن خفية ، فقالت لليدى أميليا ؛ السيدة الطيبة القلب المنوط بها السهر على الملكة : « أحسبك يا عزيزتى الليدى تشركينى فى الألم لما أصاب الملكة ! » فلم يكن إلا أن تفجرت الدموع من عينى أميليا جواباً على ما قالت پولينا.. فقالت لها وقد سرها ما رأت من بكائها : « إذن تذكرين لها أننى هنا ... وأننى مستعدة لأن أذهب بالطفلة إلى الملك فأدافع عن هرميون ، وألقى إليه بابنته عسى إن هو رآها أن ترقق ما قسى من قلبه ، وتنير ما تدجّى من نفسه ، وتظهر له ما خفى عليه من برهان ربه » فأجهشت أميليا ، ودعت للسيدة ، وشكرت لها مجازفتها ، ثم ذكرت أن الملكة كانت تفكر فى مثل هذا

ودفعت الملكة بطفلتها إلى پولينا فذهبت بها إلى الملك رغم ما حذرها به زوجها من مغبة الإقدام على هذا الجنون ، خشية أن يُبطش بها ؛ فلما مثلت بين يديه كشفت عن المولودة البائسة فصاحت وأعولت ، ثم وضعتها عند قدميه ، وانطلقت تدفع عن صديقتها الملكة ما رماها به من الفحش ، وطلبت إليه أن يرحم الطفلة بالعطف على أمها ... وكانت تتدفق فى دفاعها كالسيل ، وترق فى استعطافها كالنسيم ، ساكبةً أثناء هذا وذاك دموعها تنثرها على كلماتها ، وتنضح بها عباراتها ، عسى أن يلين فؤاد الملك

ولكن الملك وا أسفاه لم يزدد إلا عتواً ولم يزده ما صنعت پولينا إلا استكباراً ، فأمر زوجها أن يذهب بها من بلاطه ... وأن يتركاه إلى شيطانه

ثم دعا الملك إليه أنتيجونوس — وهو زوج پولينا — فأمره أن يحمل الطفلة إلى البحر ، وأن يقلع بها ليتركها عند أول شاطئ وديعةً مظلومة بين أيدى القضاء والقدر

وأتمر الرجل الغبى بأمر الملك ، فحمل المولودة فى يديه الجبارتين ، وألقاها على صدره الصخرى ، ومضى بها إلى ... البحر !

وهكذا فصل الملك بينه وبين قطعة فؤاده فى ثورة الغضب الجامح ، غير منتظر عودة رسوليه بنبوءة أبوللو من دلفوس

ولم يكن بحسبه هذا ، بل أمر بقضاة المملكة وذوى الرأى فيها فاجتمعوا فى حشد عظيم لمحاكمة الملكة .. لمحاكمة هرميون .. بأعين الرعية ، وعلى ملأ من الجمهور

ولغطت ألسن السوء بما اتهم به الملك زوجته ، وراجت ، شائعات الضلالة ، وأهرع الناس من كل فج ليشهدوا مليكتهم التقية النقية تقف موقف الاتهام الوضيع ، والشك المزري ، ثم لتسمع بعد هذا الحكم الذى لا تدرى هل يكون عليها أم لها

وصمت الناس حتى لكأن على رؤوسهم الطير

وجلس القضاة فوق المنصة الكبرى وليس فى خد أحدهم قطرة من دم

وصدئ البريق فى عيونهم فانبعثت منها ظلمات من ورائها ظلمات !

وفغر الناس أفواههم حين شاهدوا الملكة المظلومة تبكي ، وهى برغم بكائها جميلة فينانة ريانة رائعة ... لأنها بريئة

وحضر الملك فلم يتحرك أحد للقائه ... وجلس فوق عرشه الصَّلِف ، وأخذت نظراته تزيغ هنا ، ثم تشرد هناك ... كنظرات الذئب قد فجأه ضبع !!

وحينما دق كبير القضاة بيده على المنصدة مؤذناً بدء المحاكمة ، شهد الناس سيدين من خيرة ساداتهم يشقان الجموع المحتشدة ، ويذهبان إلى هيئة المحاكمة صعدا ، ثم يتجهان ناحية الملك

أوه !! إنهما كليومين وديون قد عادا من دلفى !

تُرى ماذا فى هذا الظرف الكبير المختوم بخاتم كاهن أبوللو الأكبر ؟!

قال الملك : « افتح يا كليومين بإذنى ، واتلُ على الناس نبوءة دلفى !!

وفض كليومين الظرف الكبير ، ونشر الصحيفة البردية ، وراح يتلو :

« بريئة هرميون »

« لا وزر على بوليكسينز »

« كاميللو من الرعايا المخلصين »

« ليونتس ظالم غيران[1] »

« سيعيش الملك بلا وارث إن لم تعد طفلته المفقودة ! ! »

وتبسم الملك مستهزئاً ، وظن أن النبوءة رجس من عمل هرميون وتلفيق أصدقائها ، ثم أمر القاضي الأكبر أن يأخذ في المحاكمة ليتبين الرشد من الغي

وحينما دق القاضي بيده مؤذناً بدء المحاكمة ، إذا رجل طويل يقدم حتى يقف تلقاء الملك وهو يلهث ، فيقول

— مولاى ! الأمير يا مولاى ! ماميللوس !

— ماله يا رجل ؟

— ما ... ما ... ت ! !

— مات ؟ وله ؟

— حزناً على أمه الملكة يا مولاى ! لقد هاله أن تقف هذا الموقف لتفضح ظلماً في شرفها وعرضها ... آه ياحبيبي الأمير ... آه يا أعز الناس عليّ ! ! »

وزاغت الأبصار كلها ... واستخرط الناس في البكاء ... ووجم القضاة فلم ينبسوا بكلمة

أما الملكة ، أما هرميون المسكينة ، فقد ذاب قلبها ، ووهى جلدها ، ولم تطق أن تسمع أن ولدها الوحيد الحبيب قد لفظ نفسه الأخير وجداً عليها ، ورثاء لها ، فنظرت إلى الدنيا كأنها تسوخ تحت قدميها ، وإلى السماء كأنها تطوى من فوقها ، وإلى الناس كأنهم عيون ودموع وقلوب كسيرة مُفجَّمة ... تخرّت مغشياً عليها

وانتفض قلب الملك !

وتفجرت في أغواره شآبيب الرحمة ، وانسرقت عبرة من عينه تغلى كالهل لتكفر عن خطيئته ... فأشار إلى پولينا ومن معها من وصيفات الملكة ، فحملنها ، وأوصاهن بها خيراً

وأخذ الجمع الحاشد يتمزق أباديد

ولم يمض غير قليل حتى عادت پولينا وفي وجهها سحابة حزينة باكية ، وفي جسمها رجفة عظيمة ، وفي عينيها دموع سخينة حرار ... وفي فمها نعى هرميون ! !

ماتت هرميون إذن ، وخلّفت هذه الدنيا السمجة المملوءة بالرذيلة وراءها ... خلفتها للملك الغيار المسكين الذى لم تنفعه أن تتحرك الشفقة في فؤاده حينما سمع بموت وليّه ماميللوس ، ولم ينتفع كذلك أن يؤمن ببراءة هرميون بعد إذ رماها بأم الموبقات

وذكر ليونتس طفلته التي نفاها وراء البحر مما جلبت عليه مظنّةُ السوْء في أمها من خبال ، فصار شجوه شجونين ، واعتلج فؤاده بهمّين ، وود لو يعطى عرشه وملكه لمن يرد إليه المولودة التي لا يعرف لها اسماً ، ولا يكاد يذكر لها رسماً

ولكن هيهات ! فهاهي ذي السنين تمر ، والأيام تكر ، والملك المسكين يتلظى بنار الشجو والشجن ، ويغص بآلام الأسى والحزن فهو من عيشه في سجن ، ومن قصره في قبر ، ومن ضميره في عناء ، ومن ذكرياته في بلاء ، ومن رعيته في شهود عليه بما قدمت يداه !!

* * *

أما أنتيجونوس الذى ذهب بالطفلة وراء البحر ، فقد أقلع في سفينة دفعتها الرياح ، وما زالت تدفعها ، حتى أرست على شاطىء بوهيميا ! حيث يحكم الملك پوليكسينز بأمره ... وهنا ... نزل الرسول الشقي بالأميرة الصغيرة إلى البر ، وما كاد يُصَعِّد في حدوره حتى لمح غابة قريبة فجعل يدلف نحوها ، وفي ذراعيه الوديعة المسكينة تبكي وتصيح من الجوع ... أو ... من هذا الصدر البارد الذى لم يعرف حنان الأم ، ولم يجش فيه لبنها ومحبتها

وتحت دوحة باسقة وارفة الظلال وضع أنتيجونوس الأميرة الصقلية ، وعاد أدراجه إلى البحر ... لكنه لم يبلغه ... وكيف يبلغه وهذا الدب المنتقم قد ترصده ، حتى إذا بعد عن الطفلة انقض عليه ، وأعمل فيه أنيابه ومخالبه ، وطهر ظهر الأرض من روحه المظلمة الظالمة التي لا تعرف الحنان !

وذهب الدب بعد إذ اغتذى وشبع

وبرز من الغابة رجل راع مجدود[1] طيب القلب كان مختبئاً ثمة من الدب ؛ وكان بكاء الطفلة يحز في صدره ويذيبه وجداً عليها ...

واحتملها في يديه الرحيمتين ، وراح ينظر في وجهها الصغير

(١) غيران وغيار وغيور بمعنى

(١) حسن الحظ